

كَرِيمَةً إِلَى حَدِّ التَّبَذِيرِ وَلَا هَمَّ لَهَا فِي تَرْتِيبِ بَيْتِهَا وَتَدْبِيرِ شُؤْنِهِ. إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِاسْتِمْرَارٍ وَلَا تَشْكُو التَّعَبَ وَلَا تَعْرِفُ الرَّاحَةَ إِلَّا عِنْدَ الْأَكْلِ وَالنَّوْمِ، وَفِي الصَّيْفِ كُنْتُ أَرَاهَا فِي الْحَقْلِ وَبَيْنَ الصُّخُورِ تَقْطَعُ أَعْشَابًا تَعْرِفُهَا لِتَجِدَ مِنْهَا الْمَكَانِسَ لِلْبَيْتِ، وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَا تَفْعَلُهُ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي الْحَقْلِ كَانَتْ تَأْخُذُ مِغْزَلَهَا وَتَغْزُلُ الصُّوفَ الَّذِي مِنْهُ كَانَتْ تُنْسِجُ جَوَارِينَا فِي الشِّتَاءِ أَوْ أَنَّهَا كَانَتْ تَرَفَأُ ثِيَابَهَا وَثِيَابَ جَدِّي أَوْ تَقُومُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ. كَانَتْ وَفَاءً جَدَّتِي وَأَنَا مُتَغَيِّبٌ عَنْ بِلَادِي بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْخُلَانِ. وَعِنْدَمَا جَاءَنِي الْخَبَرُ ارْتَسَمَ وَجْهُهَا الطَّاهِرُ أَمَامَ عَيْنِي بِأَخَادِيدِهِ الْعَمِيقَةِ فِي الْجَبْهَةِ وَالْخَدَيْنِ فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ لَا يُنَاحَ لِي أَنْ أَقْبِلَهَا قَبْلَ أَنْ يُغَطِّيَهَا التُّرَابُ.